

دراسات آبائية

القديس أغسطينوس

حديث الرب مع السامرية
(رابح النفوس العجيب)

ترجمة وإعداد

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى



الشهيد العظيم فيلوباتير مرقوريوس

(أبي سيفين)

N.&P.N.F, 1 st series *St. Augustine*

VOL. VII. P. 99- 107.

Tractate xv.

الكتـــــاب :" حديث الرب مع السامرية "

المـؤلـــف : القديس أغسـطينوس

ترجمـة وإعداد: الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

الطبعـــة : الأولى - ٢٠٠٧

المطـبعـــة : مكتب النسر للطباعة - ٢٣٤٢٠٩٧١

تمهـــــــيد

كان اليهود يعتزون بالأرض، بكونها "أرض الموعد" التي وهبها الله لإبراهيم أب المؤمنين ميراثًا لأبنائه. وقد انقسمت في أيام السيد المسيح إلى ثلاثة أجزاء. اليهودية في الجنوب حيث توجد مدينة أورشليم والهيكل كأقدس موضع في العالم. والجليل أو جليل الأمم في الشمال. ثم السامرة في المنتصف، حيث يوجد السامريون الذين يحملون عداوة شديدة متبادلة بينهم وبين اليهود.

ويعتبر هذا الحديث من الأحاديث الهامة والنادرة، لأنه حديث شخصي جدًا وطويل، دخل السيد معها في حوار بالرغم من العداء بين اليهود والسامريين، فاجتذبها إلى خلاصها، بل وجعلها كارزة بالخلاص. اجتذبها فتمتعت بالمعرفة، وأدركت أنه المسيًّا الذي يخبرنا بكل شيء. وبعد دقائق تركت جرَّتها لتجتذب المدينة بأسرها ويؤمن كثيرون بالسيد المسيح.

إن من يلتقى برابح النفوس العجيب يشاركه سماته، فيصير هو أيضًا رابحًا للنفوس.

✞ من هم السامريين؟

بعد الملك سليمان، وعقابًا له ولضلال الشعب، انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين: إسرائيل الشمالية التي تكونت من عشرة أسباط، والتي صارت السامرة عاصمة لها فيما بعد، ويهوذا في الجنوب التي تكونت من سبطين وعاصمتها أورشليم

ولما سقطت مدن السامرة في يد شلمناصر ملك أشور حوالى عام

٧٢٢ق.م، وسَبى بنى إسرائيل إلى أشور بسماح من الرب لأنهم أخطأوا إليه، جاء هذا الملك بجماعات من بابل وكوث وعوًّا وحماة وسفروايم، وأسكنهم في مدن السامرة (**٢مل١٧: ٣-٦و ٢٤**).

هؤلاء وغيرهم لما سكنوا هناك بأديانهم الغريبة أرسل الله عليهم السباع فقتلت بعضًا منهم، فأمر شلمناصر بإرسال أحد كهنة إسرائيل المسبيين ليسكن عندهم ليعلمهم كيف يتقون الرب (**٢مل١٧: ٢٥-٢٨**)، ومع ذلك كانوا يعبدون الرب وفي نفس الوقت كانت كل طائفة منهم تعبد إلهها، فنتج عن ذلك بمرور الزمن دين جديد عبارة عن خليط بين عبادة يهودية حسب الظاهر وعبادات وثنية متأصِّلة في قلوبهم منذ عصورهم القديمة.

ولما ابتدأ كلّ من عزرا ونحميا في إعادة بناء أورشليم وهيكل يهوه إعترض السامريون سبيلهم (**راجع عز٤: ٢-١٠، نح٢: ١٩، ٤: ١-٥**)، لأنهم اعتبروا أن استعادة اليهود لقوتهم له خطورته على كيانهم ووجودهم.

واستمرت العداوة وتأصِّلت بين اليهود والسامريين الذين تكوَّنوا منذ أيام شلمناصر من عنصرين متميزين عاشًا مع بعضهما، وهما: بقية المواطنين الإسرائيليين، والغرباء أبناء المستعمرات الأجنبية.

ومن الأسباب الرئيسية التي عمَّقت العداوة بين الشعبين هي الإختلافات العقائدية بينهما: فالسامريون يرفعوا موسى إلى درجة أعلى من البشر، ولا يؤمنون من العهد القديم كله إلاّ بأسفار موسى الخمسة، ويعتقدون أن جبل جرزيم هو الجبل المختار من الله وليس جبل صهيون، ويبدو أنه هو الجبل الذي أشارت إليه المرأة السامرية قائلة: **«أباؤنا سجدوا**

في هذا الجبل، وأنتم تقولون أن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه» (**يو٤: ٢٠**).

وواضح أن كل هذه كانت محاولات لنقل مركز ثقل الوجود الإلهي من وسط شعب الله اليهودي في أورشليم إلى السامرة، حيث تجرَّأ السامريون وبنوا على جبل جرزيم هيكلاً منافسًا لهيكل أورشليم، وذلك في أيام داريوس آخر ملوك الفرس حوالى (٣٣٥ ق.م) حسب رأى يوسيفوس المؤرخ، أو في عهد الإسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٢ ق.م) كما يرى آخرون[١].

✠✠✠✠

(١) Interpreter's Dictionary of the Bible, VOL. 4, p.190 ,ff

حديث الرب مع السامرية[1]

✝ تقديم[2]:

أيها الأحباء، إن القديس يوحنا الإنجيلي يُشبَّه بالنسر، وإن كان هذا ليس جديدًا على مسامعكم، لأنه يحلِّق بالروح على ارتفاع شاهق، ويطير فوق هذه الأرض المظلمة يِشْخَص بعينين ثابتين في نور الحق!

لذلك أرجو أن تكونوا منتبهين وفي غاية اليقظة حتى تنالوا منفعة لنفوسكم. في الواقع إن حديث الرب يسوع مع المرأة السامرية مليء بالأسرار، إنه طعام للجائع وراحة للنفس المتعبة.

✝ «كان يسوع قد تعب»:

يسوع، في طريقه إلى الجليل، **«كان لابد له أن يجتاز السامرة. فأتى إلى مدينة.. سوخار،.. فإذا كان يسوع قد تعب من السفر، جلس هكذا على البئر، وكان نحو الساعة السادسة (١٢ ظهرًا)»**. هنا تبدأ الأسرار. يسوع قد تعب.. إن ذلك لم يكن بدون هدف: هل قوة الله التي بها يستريح المتعبون تصير منهكة؟! كيف يتعب ذاك الذي نحن بدونه نصير متعبين، وفي وجوده نتقوَّى ونتشدَّد؟!

لقد تعب من السفر، وكان ذلك في الساعة السادسة، ومن تعبه جلس على بئر يعقوب. لم يكن هذا بدون قصد، بل إنه يشير إلى أمور هامة حتى

(١) يُقرأ الفصل الخاص بالسامرية (يو٤: ١- ٤٢) في كنيستنا ثلاث مرات في السنة: في الأحد الرابع من الصوم الكبير، والأحد الثالث من الخماسين المقدسة، والسجدة الثالثة يوم عيد العنصرة.

(٢) العناوين الجانبية من وضع المترجم.

نتعلم ونكون مشتاقين على أن نقرع لكي يفتح لنا الرب حسب وعده: **«إقرعوا يُفتح لكم»** (مت٧: ٧).

إنه لأجلك قد تعب يسوع من السفر إليك. وها نحن نرى يسوع قويًا وضعيفًا متعبًا: قوى لأنه كلمة الله الذي **«كل شئ به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان»** (يو١: ٣)، إذن فلا يوجد من هو أقوى منه؟ وضعيف لأن **«الكلمة صار جسدًا وحَلّ بيننا»** (يو١: ١٤).

لذلك، فإن كانت قوة المسيح هي التي خلقتك، فضعفه هو الذي أعاد خلقتك من جديد. قوة المسيح أوجدتك من العدم، وضعف المسيح وهبك الخلود ومنع عنك الهلاك الأبدى.

كضعيف أنعش الضعفاء، كما تفعل الدجاجة بفراخها. إذ شبه نفسه بالدجاجة، يقول لأورشليم: **«كَمْ مرةٍ أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا!»** (مت٢٣: ٣٧). وأنتم ترون يا إخوة كيف تصير الدجاجة ضعيفة مع فراخها. ليس بين الطيور من تكون هكذا عندما تصير أمًا.. جناحها يتدليان، وريشها يتساقط، وصوتها يصير أجش وكل أعضائها تصير غائرة وهزيلة، وكما قلت حتى عندما تراها بدون فراخها تعرف أنها أم.

هكذا يسوع ضعيف ومتعب في رحلته. رحلته هي الجسد الذي أخذه من أجلنا. فليست هناك رحلة لذاك الحال في كل مكان، وهذا الذي ليس بغائب عن أى موضع؟

لقد أخذ يسوع على عاتقه أن يتعب في رحلته إليك بعد أن أخذ جسدًا بشريًا صائرًا في صورة عبد.

وإن كان هو قد صار ضعيفًا بالجسد، فلكى لا تصير أنت ضعيفًا، بل في ضعفه تصير قويًا لأنه مكتوب: **«ضعف الله أقوى من الناس»** (**١كو١: ٢٥**).

✞ الكنيسة كلها وُلدت من جنب المسيح المطعون:

إن آدم في وقت ضعفه، وهو نائم، وُهِبَت له زوجة من أحد ضلوع صدره، هكذا المسيح وهو على الصليب، وبعد أن رقد "باكورة الراقدين" وخرجت نفسه من جسده، أى في أكثر حالات ضعفه على الإطلاق، خرجت عروسه، الكنيسة، من جنبه المفتوح الذي طُعِن بالحربة، أى خرجت السرائر Sacraments التي تمارسها الكنيسة لخلاص الإنسان وحياته من جنب آدم الثاني وهو مستسلم للموت مثل أضعف مخلوق. إذاً فضعف المسيح هو الذي يجعلنا أقوياء!

ولماذا في الساعة السادسة؟ لأنها تشير إلى الجيل السادس للعالم: فالجيل الأول من آدم إلى نوح، والثاني من نوح إلى إبراهيم، والثالث من إبراهيم إلى داود، والرابع من داود إلى سبى بابل، والخامس من سبى بابل إلى معمودية يوحنا، وفي السادس تم الخلاص بالمسيح[1].

لقد تعب المسيح، وباتضاعه جاء إلى البئر. جاء متعبًا لأنه حمل جسدًا ضعيفًا، وإلى بئر أىّ عمق أرضنا هذه التي نسكنها نحن، ولهذا قال المزمور: **«من الأعماق صرخت إليك يارب»** (**مز١٣٠: ١**) وجلس هناك بسبب اتضاعه.

(١) ولعل الساعة السادسة التي تعب فيها المسيح وهو يسعى إلى خلاص السامرية وأهل مدينتها، تشير إلى تلك الساعة التي "صُلب" فيها "من ضعف" لكى يكمل خلاصنا حيث قال "قد أُكمِل".

✞ السامرية الغريبة الجنس هي رمز لكنيسة الأمم:

«فجاءت امرأة من السامرة لتستقى ماءً». هذه هي رمز الكنيسة الآتية من الأمم والتي لم تتبرر بعد، ولكنها الآنِ على وشك أن تتبرر، لأن هذا هـو موضوع الحوار بينها وبين مخلّصها. لقد جاءت في جهلها فوجدتـه، وتم التعامل بينهما رغم أن السامريين لا يتعاملون مع اليهود، لأنهم غرباء عنهم رغم أن الشعبين كانا متجاورين.

وقد أقرَّ الرب يسوع نفسه هذه الحقيقة عندما تساءل عن التسعة البُرْص الذين شفاهم، فقال عن عاشرهم السامرى الذي رجع ليشكره: «ألم يوجد من يرجع ليعطي مجدًا لله غير هذا **الغريب الجنس**؟!» (لو١٧: **١٢-١٩**).

جاءت المرأة إلى المسيح من هؤلاء السامريين الغرباء عن شعب الله وصارت نموذجًا للكنيسة التي جاءت إلى المسيح من الأمم الغرباء عن جنس اليهود.

إذًا، يمكننا أن نرى أنفسنا في هذه المرأة فنشكر الله من جهة أنفسنا نحن الذين كنا من الأمم. فالمرأة عندما جاءت إلى المسيح كانت مجرد رمز، أمَّا بعد إيمانها به فقد ظهرت فيها الحقيقة: الكنيسة!

✞ يسوع العطشان يعطي الماء الحي!

جاءت ببساطة، وكعادة أهل مدينتها، لتستقى ماءً، **«فقال لها يسوع: أعطيني لأشرب.. فقالت له: كيف تطلب منى لتشرب، وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية؟ لأن اليهود لا يعاملون السامريين!»** بل إن اليهود لا يستعملون أوانى

السامريين باعتبارها نجسة، فكيف إذًا يريد يسوع أن يشرب في إحدى أوانيهم؟!

ولكن ذاك الذي طلب أن يشرب كان في الحقيقة عطشانًا إلى إيمان المرأة نفسها. فقال لها يسوع: «لو كنت تعلمين **عطية الله، ومن هو الذي** يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبت أنتِ منه فأعطاكِ ماءً حيًا». يا للعجب! إنه يطلب أن يشرب بينما يتعهد أن يعطى لكل من يطلب منه أن يشرب! فبينما هو عطشان يروى الكثيرين من الماء الحي. والماء الحى هو الماء الجارى المتدفق من الينبوع، وليس الماء الراكد في بئر. إذًا، فلماذا يعدُ الرب أن يعطي ماءً حيًا؟ إن "عطية الله" كان المقصود بها الروح القدس، ولكنه حتى ذلك الحين كان يتحدث مع المرأة بحذر ويدخل إلى قلبها بالتدريج.

احتارت المرأة وسألته: **«يا سيد، لا دلو لك والبئر عميقة»**، وهذا معناه أنها فهمت بكلمة "الماء الحي" أنه ببساطة الماء الذي كان في ذلك البئر، ولكن الذي حيَّرها هو كيف يحصل عليه وليس معه ما يسحبه به. فسألته قائلةً: **«فمن أين لك الماء الحي؟»** إنها في الواقع هنا تقرع لكي يفتح لها الرب ما هو مغلق عليها؟ إنها تقرع في جهلها وليس بتلهُّف للوصول إلى هدف، فهي لازالت موضع إشفاق الرب وليست في حالة تجعلها تقبل تعاليم الرب.

ثم استمرت في جهلها تسأل: **«ألعلك أعظم من أبينا يعقوب، الذي أعطانا البئر، وشرب منها هو وبنوه ومواشيه؟»** متسائلةً في نفسها: هل فاقت عظمتك على أبينا يعقوب حتى أنك تعطيني ماءً حيًا من هذا البئر بدون دلو؟ أم أنك ستعطيني من ينبوع آخر؟

عندئذ أعلن يسوع لها صراحة قائلاً: **«كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا. ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية»**.

وماذا يكون أكثر وضوحًا من أن هذا الماء الذي يعدُ الرب به هو ماء غير مرئى؟ بل إنه ماذا يكون أكثر وضوحًا من أنه يتكلم ليس بمفهوم جسدى بل روحي؟!

ولكن لأن المرأة لازالت بذهنها الجسدانى، فقد سُرَّت بفكرة أنها لن تعطش مرةً أخرى، وتوهمت أن الرب وعدها بذلك بمفهوم جسداني، هذا الوهم الذي سيصير حقيقة واقعة فعلاً ولكن بعد قيامة الأموات: **«لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد،... لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماءٍ حية»** (رؤ٧: ١٦و١٧).

ولكن المرأة رغبت في ذلك هنا على الأرض. حقًا إن الرب قد أنعم على إيليا أن لا يجوع ولا يعطش أربعين يومًا، أفلا يستطيع أن يمنح ذلك بصفة دائمة لأى إنسان؟ لأنه لو منحها هذه العطية لكان في ذلك راحة لها من المجئ كل يوم إلى البئر ثم تعود مثقَّلةً بحمل الجرَّة الثقيلة، وهذا مجهود يومى صعب لعلها تتخلَّص منه!!

نعم، إن من يشرب من هذا الماء المادى يعطش أيضًا، فضلاً عن أن الماء الذي في البئر يشير إلى مسرات هذا العالم أيضًا في عمقها المظلم، ومن هذا يستقون الناس بأوانيهم التي للشهوة. كما أنهم إذ ينحنون إلى الأمام عندما يستقون من هذا الماء فهم يسعون وراء اللذة التي يبحثون عنها في

عمق البئر، وهكذا تزداد مسرتهم بشهواتهم. لأن الذي لا يقدِّم شهوته أمامه لا يمكنه أن يجد مسرته. إذن، فاعتبروا أن هذه الشهوة هي الدلو، وأن المسرة هي الماء المأخوذ من عمق بئر هذا العالم، وها كلنا قد تحققنا أن «**كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا**» أمَّا مَن استقى مِنْ ماء الرب يسوع «**فلن يعطش إلى الأبد**»، بل كما يقول المزمور: «**سنشبع من خيرات بيتك**» (مز٦٥: ٤س)[1] إذًا، فمن أي ماءٍ سيعطى الرب إلاّ من ذلك الينبوع الذي قيل عنه: «عندك ينبوع الحياة»، لأنه كيف يعطش أولئك الذين «**يُروَون من دسم بيتك، ومن نهر نعمكَ تسقيهم**» (مز٣٦: ٨-٩). إن ما وعد به الرب كان طعامًا معينًا وامتلاءً غزيرًا من الروح القدس، ولكن المرأة لم تفهم بعد، وفي عدم فهمها: «**قالت له المرأة: يا سيد، أعطني هذا الماء، لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقى**»، وذلك لأنها في ضعفها كانت مشتاقة أن تتحرر من هذا المجهود، لأنها لم تكن قد سمعت بعد دعوة الرب: «**تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم**» (مت١١: ٢٨)، لأن هذا في الحقيقة ما كان الرب يسوع يقصد أن يقوله لها حتى لا تتعب، ولكنها لم تفهم بعد.

✞ ماذا يعني الرب بقوله «إدعي زوجكِ»؟:

لما أراد المسيح أن يجعل المرأة تفهم، «**قال لها يسوع: إذهبي وإدعي زوجكِ وتعالي إلى ههنا**». فماذا كان يقصد من كلمة «إدعي زوجكِ؟» هل يقصد أنه عن طريق زوجها يريد أن يعطيها هذا الماء؟ أم لأنها لم تفهم

(١) يستخدم القديس أغسطينوس الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم فى الآيات التى يستشهد بها فى العهد القديم، وقد وضعنا حرف (س) بعد الشاهد للدلالة على أن الآية المقتبسة هى من الترجمة السبعينية.

فأراد أن يعلِّمها بواسطة زوجها؟ ألم يتكلم إلى مريم أخت مرثا التي جلست تحت قدميه مباشرة دون وساطة رجل، تلك التي لم تفهم فحسب بل إنها «**إختارت النصيب الصالح الذي لن يُنزَع منها؟**» (لو١٠: ٤٢). إذًا، فما معنى «إدعي زوجكِ»؟ ألعل يسوع يقول لنفس كل واحد منا: «إدعي زوجكِ»! فلنتسأل إذًا عن زوج النفس. لماذا لا يكون يسوع نفسه هو الزوج الحقيقي للنفس؟ إن ما نريد أن نقوله لا يدركه إلاّ المنتبهون جيدًا!!

لما رأى يسوع المرأة لم تفهم قال لها ذلك، أى لأن السبب في إنكِ لم تفهمين ما أقوله أن إدراككِ ليس حاضرًا، فأنا أتكلم عن الروح وأنتِ تصغين بالجسد. الأمور التي أتكلم عنها لا تنتمى إلى أى من الحواس الخمسة، لأنها لا تُقبل إلاّ بالقلب، ولا يمكن أن تستقين منها إلاّ بالمفهوم الروحي، وهذا المفهوم ليس هو الذي لكِ الآن، فكيف تدركين ما أقول؟ «إدعي زوجكِ» أى تعالى بفهمك إليّ. ما معنى أن تكون لكِ نفس؟ أليس للحيوان أيضًا نفس؟ فما الذي يجعلكِ أفضل من الحيوان؟ أليس هو أن يكون لكِ الفهم الذي ليس للحيوان؟

إنك لم تفهَمين! إنني أكلمك عن عطية الله، وأمَّا تفكيركِ فهو جسداني. إنك تريدين أن لا تعطشي بمفهوم جسداني. إنني أقدم ذاتي لروحك، ولكن فهمكِ غائب. إذًا «إدعي زوجكِ» ولا تكوني «**كفرسٍ أو بغلٍ بلا فهم**» (مز٣٢: ٩).

إذًا، يا إخوتي، أن تكون لنا نفس ولا يكون لنا فهم، أي أن لا نستخدم هذا الفهم أو لا نعيش طبقًا له، فهذه حياة حيوانية، لأن نفوسنا التي نشترك فيها مع الحيوان والتي تميل إلى السلوك حسب الجسد، ينبغي أن

نتحكَّم فيها ونُخضعها للفهم الذي يمكن أن نسميه «الزوج»، هذا الذي ينبغي أن يسود على النفس كما قيل لحواء إن آدم **«يسود عليك»** (**تك٣: ١٦**). فالفهم هو عين النفس التي بها ترى وتدرك الأمور، والعين هى التي ترى النور وتسرُّ به، أمَّا بقية الأعضاء فتسير في النور دون أن تشعر به. وهكذا فإن الفهم أو الإدراك الموجود في نفوسنا يستنير بالنور العلوى: الله، لأن هذا هو **«النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان»** (**يو١: ٩**). هذا النور هو المسيح، وهو الذي كان يكلم المرأة، ومع ذلك فلم يكن إدراكها حاضرًا لكي يجعلها تستنير بهذا النور. لذلك قال الرب لها: «إدعي زوجكِ»، وكأنه يقول لها: "إني أريد أن أنيركِ، فاستدعي فهمكِ لكي أعلِّمكِ بواسطته، والذي به ينبغي أن تقودى نفسكِ. أيتها النفس، إدعى فهمكِ باعتباره زوجكِ".

✞ «رأس الرجل هو المسيح»:

ولكن هذا الزوج لا يقود زوجته حسنًا إلاّ إذا تحكَّم من فوق: **«رأس كل رجل هو المسيح، وأمَّا رأس المرأة فهو الرجل»** (**١كو١١: ٣**). لقد كان رأس الرجل يتكلم مع المرأة والرجل لم يكن حاضرًا، فكأن الرب يقول لها: "أحضرى رأسك إلى هنا لكي يأخذ رأسه"، أي "كوني هنا، كوني حاضرة، لأنك كأنكِ غائبة فلا تفهمين صوت الحق الموجود هنا، كوني حاضرة هنا ولكن ليس بمفردكِ بل مع زوجكِ".

ولكنها **«قالت: ليس لي زوج. قال لها يسوع: حسنًا قلتِ: ليس لي زوج»**. لقد كانت تعيش مع رجل، ولكنه خليل أو عشيق وليس زوجًا شرعيًا، فلماذا إذا قال الرب لها «إدعي زوجكِ»؟ لقد كان يعلم أن ليس لها زوج

شرعي، ولكي يثبت لها معرفته الإلهية بذلك قال لها ما لم تذكره هي: **«لأنه كان لكِ خمسة أزواج، والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ. هذا قلتِ بالصدق»**[١]. إنه يحثنا مرةً أخرى أن نفحص الأمر بدقةٍ أكثر فيما يخص الأزواج الخمسة:

لقد فهم البعض أن الأزواج الخمسة يشيرون إلى خمسة أسفار التوراة التي كان يؤمن بها السامريون ومنها كانوا يمارسون الختان. ولكن طالما أنه قال: «والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ»، فيبدو لى أننا ينبغي أن نعتبر حواس الجسد الخمسة هي الأزواج السابقة للنفس. لأنه عندما يولد الإنسان، وقبل أن يتمكَّن من إستخدام عقله في طفولته، فإن الحواس الجسدية هي التي تقود حياته وتسيطر عليها كخمسة أزواج للنفس تسود عليها. ولكن لماذا تُسمَّى هذه الحواس أزواجًا؟ لأنها شرعية ويحق للنفس أن تخضع لها حيث أن الله خلقها كعطية لها منه. والنفس تظل ضعيفة طالما أنها خاضعة لهذه الأزواج الخمسة، ولكنها عندما تنمو في القامة وتستخدم عقلها، فإذا كانت قد تربَّت روحيًا وتعلَّمت الحكمة، فإن هذه الأزواج الخمسة تكون قد نجحت في قيادتها للنفس بواسطة الزوج الحقيقي الشرعي الذي يقودها القيادة الحسنة، فيفلِّحها ويعلِّمها لأجل حياتها الأبدية. حواسنا الخمسة لا تقودنا إلى الحياة الأبدية بل إلى الأمور الوقتية الزائلة، أمَّا الفهم عندما يكون متشبعًا بالحكمة ويبدأ أن يسود على النفس فهو يجعلها قادرة على التمييز بين الأمور النافعة والضارة لها.

---

(١) أي أنها كانت زانية، ومع ذلك فلكى يجذبها الرب إلى الإيمان به، أبرز فضيلة كانت فيها: فضيلة الصدق، لكـي لا يجعلها تيأس من خلاصها.

هذا الزوج الحقيقي لم يأت بعد هؤلاء الأزواج الخمسة في حياة السامرية، ولذلك فالخطأ لازال يسيطر عليها، ولو استمرت هكذا لكان فى ذلك هلاكها لأنه ليس هو الزوج الشرعي بل العشيق. أيتها المراة، إنك بعد أن كنت خاضعة لسيطرة حواسكِ الخمسة، فقد بلغت الآن إلى قامة الإدراك، ومع ذلك فلم تأت بعد إلىَ الحكمة، بل سقطت في الخطأ. وهكذا بعد هؤلاء الأزواج الخمسة فإن: الذي لك الآن ليس هو «زوجك» بل عشيقك. إذًا، فادعى ليس عشيقكِ بل «زوجكِ»، حتى يمكنكِ أن تقبليني بواسطته، أى بفهمك وإدراككِ.

إن السامرية لازالت مخطئة إذ لازالت تفكر في هذا الماء الزائل، في حين أن الرب كان يكلمها عن الروح القدس. ولماذا كانت مخطئة أليس لأنه لم يكن لها زوج بل عشيق؟ فتجرَّدي إذا من هذا العشيق الذي يُفسدكِ، و«إذهبي وادعي زوجكِ». إدعه وتعالي لكي تفهميني.

✞ بداية إيمان المرأة:

«قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي!». ها هو زوجها قد بدأ يأتي، ولكن مجيئه لم يكمل بعد. لقد اعتبرت أن الرب نبي، وهو حقًا كان نبيًا، لأنه قال عن نفسه: **«ليس نبيّ بلا كرامة إلاّ في وطنه»** (مت١٣: ٥٧)، وأيضًا: **«أُقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلكَ»** (تث١٨: ١٨)، وكلمة «مثلكَ» تعني أنه سيأتي في مثل هيئتك الجسدية يا موسى، وليس مثلكَ في سمو جلاله الإلهي. وعلى ذلك فإن الرب يسوع يمكن أن يُدعى نبيًا، وهكذا فالمرأة لم تبتعد عن الحق كثيرًا.

إنها إذ بدأت تؤمن فهذا يعني أنها بدأت تدعو زوجها وأن تتخلّص من عشيقها. لقد بدأت تسأل عن أمر بدأ يقلقها، وهو أنه كان يوجد خلاف بين السامريين واليهود، لأن اليهود كان يعبدون الله في هيكل أورشليم الذي بناه سليمان ثم تجدَّد أيام المكابيين، أما السامريون فلم يتعبدُّوا لله هناك. ولهذا السبب كان اليهود يفتخرون بأنهم أفضل من السامريين، وهكذا فقد كان «اليهود لا يعاملون السامريين»، لأن السامريين كانوا يقولون لليهود: "كيف تفتخرون بأنكم أفضل منا؟ هل لمجرد أن لكم هيكلاً ليس لنا مثله؟ وهل آباؤنا الذي سُرَّ الله بهم عبدوه في الهيكل؟ أليس في هذا الجبل (جبل جرزيم) عبدوا الله؟ إذًا، فنحن نفعل أفضل منكم إذ نعبد الله على هذا الجبل الذي تعبَّد عليه آباؤنا". وفي الحقيقة إن كلا الشعبين كانوا يتنازعان بجهالة، لأن كلاًّ منهما لم يكن له «زوج». لقد كان كل منهما يتباهى أمام الآخر، فالواحد لأجل الهيكل والآخر لأجل الجبل.

ولكن ماذا يعلّم الرب المرأة الآن لما بدأ أن يكون زوجها حاضرًا؟ قالت المرأة: **«أباؤنا سجدوا[1] في هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجَد فيه. قال لها يسوع: يا إمرأة، صدقيني»** أى آمني بي وبكلامي[2]، لأن الكنيسة سوف تأتي كما قيل في نشيد الأناشيد: **«هلمِّي معى من لبنان يا عروس، تعالى من لبنان، إنكِ سوف تأتين وتعبرين على بداية الإيمان»** (نش٤: ٨س). إنها ستأتي لكى تعبر، ولكنها لا يمكنها أن

(١) كلمة السجود في الأصل اليوناني "προσκυνειν" تعني أيضًا العبادة.

(٢) لأن الكلمة اليونانية "πιστυω" تحتمل كلا المعنيين: التصديق والإيمان.

تعبر إلاّ من خلال بداية الإيمان. حقًا، إذ جاء الزوج الآن فها هي تسمع: «يا إمرأة صدِّقيني (آمني بي)»، لأن زوجك الآن حاضراً. لقد بدأت أن تكوني حاضرةً بفهمكِ. عندما بدأت تدعينى نبيًا، وإن لم تؤمنى فلن تفهمي (إش٧: ٩س).

✞ السجود لله بالروح والحق:

لذلك «صدِّقيني أنه تأتي ساعة، لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أمّا نحن فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص هو من اليهود». "ولكن تأتي ساعة"، متى؟ "وهي الآن". أيّة ساعة؟ «حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له». ذلك لأن "الله روح"، فلو كان الله جسدًا لكان بالحق يرغب أن يُعبَد في مكان مادي كالجبل أو الهيكل، ولكن «الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا».

قد تقول في قلبك: «ألاّ أطلب جبلاً عاليًا منفردًا؟ لأنني أعتقد أن الله لكونه في الأعالي فهو يسمعني بالأحرى من مكان عالٍ»! ألأنك على جبلٍ عالٍ فأنت تظن أنك قريب من الله، وأنه سيسمعك سريعاً لأنك تدعو من مكانٍ قريب إليه؟ حقًا إنه يسكن في الأعالي، ولكنه ينظر إلى المتواضعين: «قريب هو الرب»، ممن؟ «من المنكسرى القلوب» (مز ٣٤: ١٨)، .. «الرب عالٍ ويرى المتواضع، أمّا المتكبر فيعرفه من بعيد» (مز ١٣٨: ٦). وبقدر ما أن الرب بعيد عن المتكبرين بقدر ما يرون أنفسهم مرتفعين!

أتبحث عن جبل؟ إنزل واتضع لكيما تقترب إليه. أتريد أن تصعد؟ إصعد، ولكن لا تبحث عن جبل: «طوبى للرجل الذي معونته من عندك

يارب. رتب في قلبه أن يصعد في وادى البكاء» (مز ٨٤: ٦س)، والوادى هو الإتضاع، وعلى ذلك فليكن عملك كله في داخلك. وحتى إذا طلبت مكانًا عاليًا ومقدسًا، فاجعل من نفسك هيكلاً لله في داخلك: «لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو» (١كو٣: ١٧). أتريد أن تصلّي في الهيكل؟ صلِّ فى داخلك، ولكن كُن أولاً هيكلاً لله، لأنه يسمع من يصلِّي إليه في هيكله!

«نحن نسجد لما نعلم، لأن الخلاص هو من اليهود». عظيم هو الأمر الذي نسبه لليهود، ولكنه لا يقصد اليهود المزيفين، لأنه يوجد حائط ملتصق به حائط آخر وكلاهما يستندان على حجر الزاوية الذي هو المسيح. إنها حائط من اليهود وآخر من الأمم، وهم يظلان بعيدين عن بعضهما حتى يلتصقا ويتحدا في المسيح. لقد كان البعيدون «أجنبيين عن رعوية إسرائيل، وغرباء عن عهود الموعد» (أف٢: ١٢)، وعلى ذلك قال الرب: «نحن نسجد لما نعلم»، وهذا لا ينطبق على اليهود المرفوضين بل على اليهود الذين كانوا مثل الرسل والأنبياء، ومثل قديسى الكنيسة الأولى الذين باعوا كل ما لهم ووضعوا أثمانها تحت أقدام الرسل. لأنه «لم يرفض الله شعبه الذى سبق فَعَرفَه» (رو١١: ٢).

✞ «أنا الذي أكلمكِ هو»: المسيّا:

لقد سمعت المرأة ذلك وتقدمت خطوةً، فدعت الرب نبيًا. لقد لاحظت أن هذا الذي كانت تتكلم معه قد نطق بأمور ترفعه إلى مستوى الأنبياء، فماذا كانت إجابتها؟ «قالت له المرأة: أنا أعلم أن مسيًّا، الذي يُقال له المسيح، يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء». ما هذا؟ لقد قالت منذ قليل إن اليهود يختلفون معهم بخصوص الهيكل وهذا الجبل! ولكن في الحقيقة إن

الرب عندما يأتي فسيزدرى بالجبل وسيقلب الهيكل، لأنه سيعلّمنا كل شيء حتى نعرف كيف نعبد بالروح والحق.

لقد علمت المرأة من هو الذي يمكنه أن يعلّمها، ولكنها لازالت تجهل ذاك الذي كان يعلّمها.

ولكن ها هي قد استحقت الآن أن تقبل ظهوره وإعلان ذاته لها. الآن قد مُسِح المسيَّا، لأن كلمة «ممسوح» باليونانية "χριστος" تعني «المسيح»، وفي اللغة العبرية «مسيَّا»، وفي اللغة البونية أى القرطاجية القديمة (أى لغة أهل قرطاجة التي كان يعظ فيها القديس أغسطينوس) كلمة Messe تعنى الممسوح، لأن هذه اللغات هي من أصل واحد.

«قال لها يسوع: أنا الذي أكلمَكِ هو». الآن بدأ إيمان المرأة يتكون ويثبت ويسود على قلبها لكي تبدأ أن تعيش باستقامة، وذلك لأنها استدعت زوجها. فبعد أن سمعت «أنا الذي أكلمك هو»، ماذا تحتاج أن تسمع أكثر من ذلك؟ لقد شعر الرب يسوع أنها أصبحت مستعدة أن تؤمن، فبمشيئته أعلن ذاته لها.

«وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة». أتتعجبون من كون ذاك الذي جاء لكي يطلب ويخلّص ما قد هلك يطلب الآن نفس السامرية؟ لقد تعجبوا من صلاحه و لم يتوقعوا منه أمرًا فيه خطية **«ولكن لم يقُل أحد ماذا تطلب؟ أو لماذا تتكلم معها؟»**.

وللحال **«تركت المرأة جرَّتها»** بمجرد أن سمعت أنه المسيَّا، لأنها بمجرد أن قبلت المسيح الرب في قلبها فماذا يمكنها أن تفعل سوى أن تترك جرَّتها

وتسرع لتبشرِّ بهذه البشارة المفرحة؟ لقد ألقت عنها شهوتها وأسرعت لتعلن الحق. فليتعلّم من يريدون أن يبشروا بالإنجيل أن يلقوا عنهم جرارهم عند البئر.

إن كلمة «جرَّة» باليونانية υδρια، لأنها مشتقة من كلمة «ماء»:υδωρ . هكذا تركت المرأة جرَّتها التي لم تُعد في حاجة إليها، بل أنها صارت ثقلاً عليها لأنه بهذا القدر صار تلهُّفها على الإرتواء من الماء الحى. وإذ ألقت حِملها عن كاهلها وصارت قادرة أن تعرِّف الناس بالمسيح: **«مضت إلى المدينة وقالت للناس: هلموا انظُروا إنسانًا قال لى كل ما فعلت»**. وقد جاء إعلانها لهم ودعوتها هذه بالتدريج، لذلك أردفت قائلةً بصيغة الإستفهام: **«ألعل هذا هو المسيح؟! فخرجوا من المدينة وأتوا إليه»**.

«في أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين: يا معلم كُلْ» لأنهم **«كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعامًا»** ورجعوا. **«فقال لهم: أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم. فقال التلاميذ بعضهم لبعض: ألعل أحدًا أتاه بشيء ليأكل؟»** إذًا، فلا تتعجبوا من أن المرأة لم تفهم كلام الرب عن الماء، فها هم تلاميذه أنفسهم لم يفهموا معنى الطعام. ولكنه عَلِم بأفكارهم، وهو الآن يعلّمهم كسيد، ليس عن طريق غير مباشر كما فعل مع المراة عندما كان يطلب زوجها، ولكنه قال لهم مباشرةً معلنًا: **«طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله»**. وقياسًا على ذلك، فإن شرابه الذي طلبه من المرأة كان هو أيضًا أن يعمل مشيئة الذي أرسله. وهذا هو سبب قوله: «أعطيني لأشرب» لأني عطشان. ومعنى ذلك بالتحديد هو: أن يعمل الإيمان (بالمسيح) فيها وأن يشرب هو من إيمانها. بل وأن يطعِّمها في جسده، لأن جسده هو الكنيسة.

✞ ها الحقول «قد ابيضّت للحصاد»:

«أما تقولون أنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد؟ »لقد كان الرب متلّهفًا على العمل، وكان يعدُّ لإرسال فعلة، وكأنه يقول لهم: «إنني أريكم حصادًا آخر قد ابيضَّ وصار جاهزًا للعمل». لذلك **«ها أنا أقول لكم: إرفعوا أعينكم وانظُروا الحقول إنها قد ابيضّت للحصاد»**. لقد كان على وشك أن يرسل الحصادين، **«لأنه في هذا يصدق القول: أن واحدًا يزرع وآخر يحصد. لكي يفرح الزارع والحاصد معًا. أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم»**. لقد أرسل الحصادين، أليس هو أيضًا الذي كان قد أرسل الزُرَّاع؟ فإلى أين يذهب الحصادون إذًا؟ بالطبع إلى حيث تعب الآخرون (الزُرَّاع)، لأنه حيثما وُجد تعب وجهد مبذول فلابد أن يكون هناك زرع، وما زُرع قد صارَ الآن ناضجًا ويحتاج إلى منجل الحصاد وآلة الدرس. فإلى أين ينبغي إرسال الحصادين؟ إلى حيث كان الأنبياء قد كرزوا لأهم كانوا هم الزُرَّاع. لأنه لو لم يكونوا هم الزُرَّاع فمن أين عرفت السامرية: «أنا أعلم أن مسيًّا يأتي»؟ لقد صارت تلك المرأة ثمرةً ناضجة، والحصاد قد ابيضَّ في الحقول ويحتاج إلى المنجل[1].

ومن هم الذين دخل الرسل على تعبهم؟ إبراهيم وإسحق ويعقوب. إقرأ عن أتعابهم حيث تجد فيها جميعًا نبوات عن المسيح، ولأجل هذا السبب كانوا زُرَّاعًا. وموسى أيضًا وكل بقية الآباء والأنبياء، كم عانوا في الأجواء الباردة التي زرعوا فيها! وعلى ذلك فالحصاد قد صار الآن مهيًّأ في

(١) هذه هي الحقيقة التي تتعلق بالطبيعة البشرية وبالوقت الذي جاء فيه المسيح إليها، فهو لم يأتِ إلا عندما وجد أن النفس البشرية قد صارت ناضجة ومهيَّأة لقبول الإيمان به.

اليهودية. وبمجرد أن صار القمح ناضجًا أتى الآلاف من الناس بأثمان ممتلكاهم ووضعوها تحت أقدام الرسل، وإذا أراحوا أكتافهم من هذه الأثقال الدنيوية بدأوا يتبعون المسيح.

ومن هذه الثمار الناضجة انتشر القليل هنا وهناك وزُرع العالم كله، ثم أن حصادًا آخر سوف يقوم ويُحصَد في نهاية العالم، وهو المكتوب عنه: **«الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالإبتهاج»** (مز ١٢٦: ٥) ولكن الذين سيرُسَلون إلى ذلك الحصاد ليسوا رُسلاً بل ملائكة، لأنه يقول: **«والحصَّادون هم الملائكة»** (مت ١٣: ٣٩). إن ذلك الحصاد قد نما بين الزوان، وهو ينتظر أن يتنقّى من وسط الزوان في نهاية العالم، وأمّا هذا الحصاد الذي يُرسل إليه الرسل أولاً، حيث تعب الأنبياء، فقد صار بالفعل ناضجًا.

ولكن لاحظوا يا إخوة، ما قاله الرب: **«لكي يفرح الزارع والحاصد معًا»**. إن تعب كلٍّ منهما يختلف عن الآخر، ولكنهما سيبتهجان بفرحٍ متساوٍ، لأن كلاًّ منهما سيأخذ أجرًا واحدًا هو الحياة الأبدية.

✞ بشهادة السامرية آمن كثيرون من أهل مدينتها:

«فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة التي كانت **تشهد** أنه: قال لي كل ما فعلت. فلما جاء إليه السامريون سألوه أن يمكث عندهم، فمكث هناك يومين، فآمن به أكثر جدًا بسبب كلامه. وقالوا للمرأة: إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن، لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلّص العالم».

لقد أذاعت المرأة البشارة المفرحة بالمسيح، فآمن أهل مدينتها أولاً بسبب شهادتها ثم بواسطة وجود المسيح نفسه بينهم. وهذا هو نفس ما يحدث الآن بين الذين هم من خارج، فهم يعرفون شيئاً عن المسيح بواسطة أصدقائهم، كما بواسطة هذه المرأة التي هي الكنيسة، فيأتون إلى المسيح ثم يؤمنون بحضور شخصه المبارك في وسطهم. لقد مكث عندهم يومين، أى أعطاهم وصيتى المحبة الأساسيتين: محبة الله ومحبة القريب. وهكذا تثبّت إيمان الكثيرين به لأنه هو في الحقيقة مخلّصهم ومخلّص العالم كله.

✠✠✠✠